مقياس : الدراسات الثقافية

المحاضرة رقم 03

(3)سياسة التمثيل(Politics of Representation):

العمل الهائل لمنظري الدراسات الإعلامية النقدية مثل أولئك في مدرسة فرانكفورت ، الدراسات الثقافية البريطانية، البنيوية وما بعد البنيوية الفرنسية كشف أن الثقافة هي بالأساس بناء اجتماعي ، يرتبط جوهريا بتغيرات الوسط الاجتماعي والتاريخي المتعين الذي تم تصورها فيه. كان لزاما على الدراسات الإعلامية والثقافية أن تنخرط في سياسات التمثيل، والتي تقتبس من المقاربات النسائية والنظريات المتعددة الثقافات بهدف تحصيل تحليل كامل لوظائف الجندر، الطبقة، العرق، الإنتماء الإثني، الجنسية، التفضيل الجنسي، وما إلى ذلك...- وهي أبعاد اجتماعية حيوية في بناء النصوص الثقافية وتأثيراتها، كما أنها تدخل في تكوين الجماهير التي تستخدم و تتلقى تلك النصوص .

تبنت الدراسات الثقافية البريطانية، مثلا، بشكل تدريجي بعدا نسائيا، وأولت أهمية أكبر للعرق، الإثنية والجنسية، وذلك باعتبار ما كان رائجا من خطابات متنوعة عن العرق والطبقة والجندر والجنس ...استجابة للصراعات والحركات الاجتماعية. أوجد عالم متزايد الهجانة ثقافيا، وتزداد الجاليات فيه باضطراد الحاجة إلى فهم أكثر تطورا للتفاعل بين التمثيلات، السياسة، وأشكال وسائل الإعلام، ...وتقدم الأدبيات في هذا المجال تحليلات ورؤى من منظورات مختلفة على قدر كبير من الأهمية والأصالة والراديكاية لهذه الإشكاليات.

من الجدير التنويه أن أهم الدراسات الأساسية عن الثقافة الشعبية كانت من إنجاز أشخاص مهمشين، وأن هناك نزعة قوية في كثير من الدراسات الثقافية نحو الاتجاه النسائي، النظرية النقدية للعرق، ونظرية المثلية. بالإضافة إلى ذلك، أشار المنظرون النقديون في هذه الميادين إلى الطبيعة التقاطعاتية والبناء المشترك لمجالات من قبيل العرق، الجندر، والاتجاه الجنسي. تم بلورة مفهموم التقاطعاتية(intersectionalism)من قبل المنظر النقدي للقانون والعرق، كمبرلي كرينشاو(1991)، والذي صاغ التقاطعاتية البنيوية لأنظمة الجندر والعرق والتقاطع السياسي بدلالة الطرق المتداخلة والمترابطة للقمع السياسي. وتم توسيع المفهوم ضمن الدراسات النسائية والدراسات الثقافية للدلالة على العلاقات المتبادلة بين الاشكال المختلفة للقمع وتشكيل الهوية التي تشترك في بناء، تعزيز، وجمع بعضها بعضا.

مثلا، تحليل التقاطعاتية يمكن أن يصف كيف أن امرأة سوداء مثلية (تقاطع الجندر العرق والجنس) يتم بناء هويتها على نحو مشترك(co-constructed) بكل هذه المكونات الأساسية للهوية ثم ليتم تهميشها وقمعها بطريقة لا يمكن أن تنسب تحديدا لمجال أو لآخر.تتقاطع أيضا نصوص و تمثيلات ثقافة وسائل الإعلام في بناءها لخطابات وصور العرق والجندر والطبقة و الاتجاه الجنسي، ...وهكذا من أجل خلق أنظمة الآخروية(المتعلقة بالاخرotherness) والاستتباع و التي تبنى على نحو مشترك في تقاطعاتها بعضها ببعض. وعليه، صاغت الدراسات النقدية الثقافية/ الإعلامية تقاطع العرق، الطبقة، الجندر والاتجاه الجنسي، ومحاولات تجاوز التحاليل المختزلة والمجتزئة لمختلف الدراسات المقتصرة على ميدان واحد وفقط (مقابل الأولى)، منتجة تحاليل أكثر تركيبا والتي تأخذ بعين الاعتبار تقاطعات القمع على كل من المستويات الاجتماعية، الثقافية والفردية.

الاعتناق التحليلي والسياسي للطبقة، الجندر، العرق والميل الجنسي، وبناءهم المشترك جعل من الدراسات الثقافية محل خلاف وجدل، وتحديدا لما انقدت تيارات سياسة من داخل الدراسات الثقافية وبصورة حادة الاستتباع والسيطرة، بينما احتفت وأشادت بالمقاومة والصراع.

ربما من دواعي السخرية أن معارضة الدراسات الثقافية تنشأ وتقوم تحديدا على الاهتمامات الأساسية ونقاط القوة لهذا الميدان، والتي تشمل " سياسة التمثيل politics of representation" للجندر، العرق، الطبقة، الميل الجنسي وعلاقات مهمشة أخرى. اعتناق هذه المواضيع في الدراسات الثقافية ونقد التحيز الطبقي، الجنسي، العرقي، رهاب المثليين، وأشكال أخرى من المواقف والمشاعر السلبية أدت الى اتهام الدراسات الثقافية على أنها سياسية بزيادة، أو أنها مخلخلة للحدود الأكاديمية، باعتبارها تتناول قضايا السلطة، السيطرة، الجامعة، الدولة، أو القوة الإعلامية للشركات.

مثلا في مقالة **لورا مالفي** الموسومة **"**اللذة البصرية والسينما القصصية**"** والتي بلغت مرتبة العمل الكلاسيكي في الدراسات الثقافية النقدية، إذ تعرضت للمعارضة، والتحدي ومن ثم التعديل عبر السنوات منذ أول ظهور لها على الشاشة سنة 1975، تكمن أهميته في الإطار النظري الفريد الذي يعرضه من أجل تناول العلاقة بين الشخص المشاهد والنص السينمائي. باستعمال تصورات التحليل النفسي للشخص الفاعل(subject)سعى تحليل **مالفي** إلى استكشاف الطرق التي من خلالها تعمل التقنيات السينمائية على مخاطبة المشاهد كفاعل وتعمل على صياغة نظرة المشاهد للشاشة وفق النظرات القصصية للفيلم. قدمت مالفي تعديلا أو إظافة نسائية، باعتبار أن نظرة المشاهد في تحليلها تحيل إلى كونه ذكر. وتجادل **مالفي** أن الآلة السينمائية تعمل على شرعنة وإدامة نظام أبوي حيث موضوع النظر هو أنثى والناظر أو القائم بالنظر – الناظر الناشط- ذكر. في الوقت الذي نشر فيه عملها، وفرت مقالتها أداة جذرية لتحليل تمثيل الاختلاف والرغبة الجنسيتين في السينما. بعد أكثر من عشرين سنة من

ظهوره، تساءلت الانتقادات عن مدى صحة الثنائية التي طبعت حججها والجمود الذي طبع بناءاتها للجندر، وتبع ذلك صدور عدد معتبر من البحوث كرد فعل على التساؤلات والتحديات التي طرحتها هذه المقالة.

كان التمثيل(representation) والميل أو الاتجاه الجنسي(sexuality) (يراد به هنا غير الجندر،بل الأقليات الجنسية مثل المثليين وغيرهم) أيضا محل تركيز عمل ريتشارد داير **"**القولبة النمطية**"**(stereotyping) تناول **داير** مشكلة الإيديولوجية التي تعمل في التمثيلات الدارجة للأقليات الجنسية وغيرها من الأقليات في الفيلم ووسائل الإعلام الأخرى، مبينا القولبة النمطية بوصفها عملية هيمنة يتم عبرها الحفاظ على السيطرة من طرف الجماعات الحاكمة. غير أنه عقد القضايا البديهية للتمثيل السيء (misrepresentation)والتشويه بتساؤله عما إذا كانت الصور الأكثر واقعية أحسن من القوالب النمطية. قام **داير** بتوضيح الاستراتيجيات أو الاختصارات أو الاختزالات التي تتم القولبة النمطية بواسطتها، مثل استخدام الإيقونوغرافيا(استخدام الصور والرموز لتصوير فكرة ما)، البنى أو القوالب القصصية، التشخيص، وأنماط الأعضاء(عضو الأسرة، عضو منظمة أو مؤسسة، ...)، كما خلص إلى أن بعض طرق التنميط ترتبط بخصوصيات تاريخية وثقافية تحددها الجماعات والطبقات وعوائدها (dyer,1934,p.37)، وهو ما يحيل إلى هويات جماعية، تضامن سياسي، وصراع مجتمعي. ورغم بعده الزمني، إلا أنه عمل من الأهمية بمكان، كونه يتناول قضايا لطالما كانت عرضة للتجاهل تتعلق بالميل أو الاتجاه الجنسي ووسائل الإعلام، وهكذا كان عملا أساسيا وفر مدخلا لجوانب أساسية من الدراسات الإعلامية للمثليين (gay/lesbian media studies).

من جهة أخرى، كانت القوالب النمطية المتعلقة بتمثيل أفراد الجنسين الهجناء(غير المثليينheterosexual) لدى الطبقات الدنيا في صلب اهتمام جانيس رادوي Janice Radway ، حيث انغمس في بحث قراءات ربات الضواحي في وسط أمريكا، ودراسة شغفهم وولعهم بالقصص الغرامية، وهو نوع هابط. مدفوعا بحافز فهم الطريقة التي تترسخ بها الثقافة الشعبية في الحياة الاجتماعية لمستعمليها، أجرى رادوي بحثا إثنوغرافيا على نساء سميثتون ببنسيلفانيا، وقد كان بحثا نسائيا(feminist) ضمن الدراسات الثقافية والذي ركز على أهمية وسلطة ما يفترض أنها أشكال هابطة من الثقافة النسائية. بالنسبة ل**رادوي** ، وجهة نظر النساء اللائي تشكل **ممارساتهم** القراءاتية حياتهم وتحولها توفر طرقا لفهم ليس مجرد لذة الثقافة الشعبية ، ولكن قدراتها التقدمية الكامنة فيها ودورها في المعارك الاجتماعية الدائرة حول الاتجاه والسلوك الجنسي لدى النساء. مقتبسا من مقولة Angla Mc Robbie(1982) أن **"**التمثيلات تفسيرات**"** (representations are interpretations) بحث رادوي ما إذا كانت البناءات المقولبة نمطيا للأنوثة السلبية والذكورة العدوانية في القصص الغرامية تعيد موقعة النساء كضحايا أبويين، وما إذا كان مجرد فعل القراءة يشكل مقاومة بطرق لطيفة ناعمة ولكنها قوية.

تم تناول علاقات النظر، الميل أو الاتجاه الجنسي، والرغبة بشكل أكبر من طرف بيل هوكس Bell Hooks في عملها الموسوم ب" أكل الآخر eating the other"، والمأخوذ من " المظاهر السوداء: العرق والتمثيل black looks :race and reepresentation". كانت هوكس من أوائل الباحثات الأفارقة الأمريكيين من أصحاب الاتجاه النسائي الذين نبهوا للتقاطعات بين العرق ، الطبقة، الجندر، ومعالم أخرى للهوية في بناء الذاتية- إذ باكرا في مسارها المهني تحدت أصحاب الاتجاه النسائي بوجوب الاعتراف ومواجهة الطرق التي بواسطتها يطبع كل من العرق والطبقة تجارب النساء (وحتى الرجال).من الجوانب المهمة في عملها هو مزجها بين تحليل نظري ناضج من جهة وحساسيات ولغة الحياة اليومية من جهة أخرى. كان هدفها جعل النقد الاجتماعي والثقافي في متناول شرائح من الناس تتجاوز الفضاء الأكاديمي. يعتبر عملها هذا ممثلا لمقاربتها الفريدة للدراسات الثقافية.حيث سعت هوكس لاستكشاف البناءات الثقافية ل"الآخر" بوصفه مادة مرغوبة، رابطا هذا الموقف بالنزعة الاستهلاكيه والتسليع بالإظافة إلى الهيمنة والاستتباع العرقيين. وفي معرض تحذيرها من إغراء الاحتفاء ب" الأخروية otherness"(المتعلق بالاخرين). استخدمت هوكس منتجات ثقافية إعلامية مختلفة من قبيل كاتالوغات الألبسة، الأفلام، موسيقى الراب، لمناقشة قضايا التملك أو الاستحواذ الثقافي مقابل التقدير الثقافي ، ومن أجل كشف التناقضات الشخصية والسياسية الجارية في تمثيل وسائل الإعلام الجماهيرية.

موسعة ومعقدة لتحليل هوكس، تأملت باتريسيا هيل كولينس Patricia Hill-Collins للذكر الإفريقي الأمريكي. إذ عبر جمعها بين العناصر الدارجة: الاتجاه أو الميل الجنسي، الطبقة، والعرق،... جادلت هيل كولينس أن التصويرات الإعلامية للرجل الأسود تعمل على مقابلة السواد بالبيوضة على نحو يفضي إلى إدامة الحدود الاجتماعية ويرسخ اللامساواة الاجتماعية. تعمل هذه التمثيلات لبناء ما تدعوه باتريك رال(2002) Patrick Rael الكنايات العرقية حيث تستعمل"إساءات وخطايا القلة لتمثيل الطبيعة الأخلاقية لعرق بأكمله"(ص،179). في تحليل أشمل، انتقدت تصويرات انحراف الرجل الأسود المتراوحة من الشباب السيئين ذوي البنيات الجسدية القوية إلى المغتصبين إلى المثليين، لتخلص إلى القول أن في فترة ما بعد اللاتمييز العنصري تتطور "عنصرية جديدة " تعمل على تقييد مبادرة السود ونشاطهم.

يمكن أن تقتفى كتابات بول غيلروي Paul Gilroy الكثيرة عن العرق، الجاليات(الشتات diaspora) والهوية الوطنية إلى انخراط نقدي كثيف في ما يعرف بالدراسات الثقافية البريطانية. لا حظ غيلروي أن الشعبية الحالية لمفهوم "الهوية" في البحوث الأكاديمية تعود جذورها للدراسات الثقافية الأولى. وقد أبرز الطرق التي من خلالها كان موضوع الهوية حاضرا كفكرة ضمنية في أهم الأعمال على غرار "صناعة الطبقة العاملة الإنجليزية" لتومبسون أ.ب making the english working class.E.P. Thompson و ثقافة الفقير لريتشارد هوغارد Richard

Hoggart's Uses of Literacy ، والتي توفر طرقا لكيفية تصور الهوية في علاقتها بقضايا الوطن والطبقة. لكن غيلروى أشار أن غياب العرق في هذه الدراسات مثل مفارقة أو لغزا في هذه الأعمال باعتباره حاملا لهوية الطبقة وهو ما يؤشر لاختيار سياسي مقصود من طرف هؤلاء الكتاب الأوائل. ليخلص في نهاية عمله بالدعوة لتنظير للهوية، الثقافة، الوطن يأخذ بعين الاعتبار تاريخ الاحتلال، الهجرة، الاقتصادات العابرة للأوطان، والتعددية الثقافية الجديدة. يعتبر عمله خطوة أولى نحو انخراط جد متقدم ومركب مع العرق والوطن، والتي أثرت على ما تلاها من أعمال غيلروي و قطاع كبير من غيره من باحثي الدراسات الثقافية الأمريكان والأوربيين وفي العالم قاطبة.

كما أثارت شاندرا موهانتيChandra Mohanty قضايا أساسية كالوطن، الهوية والسلطة في عملها الكثير التداول والهائل الصيت " تحت أعين غربية under western eyes".ورغم أن هذا العمل لم يكن موجها تحديدا لتناول الثقافة الإعلامية، لكنه طرح نقدا وجيها أن يعتبر في أي نقاش لسياسة التمثيل. تتحدث موهانتي عن عملية الاستحواذ والتشفير ل" نساء العالم الثالث" من قبل الجماعة الأكاديمية النسائية الغربية، مذكرة إيانا أن العالم الثالث أكثر تعقيدا وتنوعا وذو اشكال أكثر تعددا مما تسمح به البناءات المسيطرة. حتى الخطابات ذات الاتجاه النسائي المفترض أنها تقدمية تنزع وتنتهي عادة إلى الاختزال وعدم مراعاة السياق والتاريخ– أي الزمن– فيما يتعلق بما تدعوه موهانتي " خصوصصية العالم الثالث". ورفعت موهانتي، كما هوكس، تحديا مهما في وجه مفهوم مفاده أن فئة المرأة يمكن تناولها بمعزل عن عوامل الطبقة، الإثنية، والمواقع العرقية. يعود اعتراضها إلى " التلبيس بين 'النساء' كجماعة مبنية جدلا ...و 'النساء"كفاعلات ماديات في سياق تاريخي محدد...". وفي جدالها من أجل فهم مؤسس تاريخيا وثقافيا لمختلف تجارب المرأة، قدمت موهانتي قضايا نظرية ومنهجية مهمة والتي تفرض علينا تحدي الهيمنات و اختلالات علاقات السلطة في الدراسات الثقافية وأيضا في الميادين العلمية العامة.

تذكرنا موهانتي أن التغييرات الاجتماعية والسياسية لها تداعيات أبعد من حدود الدولة الواحدة. بالضبط مثلما أقر مالفي، هوكس، غيلروي، بالطبيعة المتعددة المستويات، العلاقاتية المتفاعلة، والهجينة للتمثيل العرقي والجندري في الولايات المتحدة ، عملن ستور غارسيا كانكليني Nestor Garcia Canclini حثيثا على فهم نتائج لامركزة الدولة الوطنية وتأثير الثقافات مابعد الحداثية، مابعد الوطنية العالمية على الإنتاج الثقافي في أمريكا اللاتينية. في الدراسات الإعلامية التقليدية، أدى وضع الانتماء للعالم الثالث لأمريكا اللاتينية المتجلي في التبعية الاقتصادية إلى "نظريات الإمبريالية الثقافية"حيث نظر إلى الولايات المتحدة على أن لها أثرا هيمنيا وتدميريا هائلا على إنتاج الثقافة المحلية لجيرانها في الجنوب. غير أن الأعمال الأخيرة للباحثين في أمريكا اللاتينية عرفوا الأممية (transnationalism)

على أنها دعوة لمنظورات بحثية جديدة؛ فالأسواق والتكنولوجيات الجديدة ليس لها تأثيرات قمعية فقط، يجادل هؤلاء، بقدر ما تفتح مجالا وتوفر فرصة للإنتاج الثقافي المحلي والجهوي والذي يزخر بقدرات تقدمية.

الأطروحة التي تمثل مراجعة" الفرار من التبعية" تمت صياغتها من طرف كالسيني في عمله الموسوم" ثقافات هجينة وقوى خفية". مع أخذه بعين الاعتبار ممارسة السلطة بين العالمين " الأول" و" الثالث"، يجادل **غارسيا كاكليني** أن وسائل الإعلام الجماهيرية لم تمح أشكال التعبير الثقافي التقليدي في أمريكا اللاتينية، بل بالأحرى ساهمت في إعادة تشكيل أزاحت طرق التفكير القائمة حول الثقافة. ترتبط إعادة التشكيل هذه بتحولات اجتماعية متنوعة أخرى، يشمل ذلك اتساع المناطق الحضرية، تراجع السلوك العمومي الجماعي، ومشاريع التغيير السياسي غير المكتملة في كثير من دول أمريكا اللاتينية. تمثل وسائل الإعلام نوعا جديدا من الفضاء العمومي بوصفها تعمل على تحقيق الإدماج في مجتمع متفكك. لدى مقابلته بين الثقافة الإعلامية والرموز التقليدية للحداثة- البنايات المميزة والمتاحف- ركز **غارسيا كاكليني** على السؤال الأساسي وهو كيف تعمل الشبكات الجديدة والكثيفة للقاطعات الاقتصادية والأيديولوجية، وما يتولد عنها من أشياء هجينة وتدهورات، على إعادة تشكيل علاقات السلطة.

وهكذا تركز سياسة التمثيل على توجيه الاهتمام لحقيقة أن الثقافة تنتج ضمن علاقات السيطرة والاستتباع (subordination) كما تعمل على إعادة إنتاج أو مقاومة بنى السلطة القائمة. يوفر هكذا منظور أيضا للدراسات الثقافية أدوات يمكن النقد من خلالها على كشف وإدانة جوانب من النصوص الثقافية التي تعيد إنتاج أشكال السيطرة الطبقية، العرقية، الجندرية، وغيرها من أشكال السيطرة، كما تثمن الجوانب التي تزعزع السيطرات القائمة، أو ترسم أشكال المقاومة والصراع ضدها.